سلبيات

يجب أن تختفي

من حياة الإسلاميين

بقلم

الدكتور محمد علي الهاشمي

سلبيات

يجب أن تختفي

من حياة الإسلاميين

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

قامت بطباعته وإخراجه دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ٥٩٥٥ - ١٤ ويطلب منها

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، الهادي إلى كل خير، الناهي عن كل شر، الرحمن الرحيم. والصلاة والسلام على سيدنا محمد معلِّم الخير، والمبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين ومَنْ تفتّحت نفوسُهم لهَدْيه إلى يوم الدين.

أما بعد، فهذه خواطر دارت في خَلَدي، وأنا أتأمل أحوال الإسلاميين وما انطوت عليه من إيجابيات وسلبيات، أحببت تناول السلبيات منها، رغبةً مني في تقديم شيء من النقد الذاتي لإخواني الإسلاميين الذين أحببتهم، وتمنيت لهم الاقتراب دوماً من الكمال، والابتعاد دوماً عن النقص.

وما نهزني إلى كتابة هذه الصفحات ــ عَلِمَ الله ــ إلاَّ الرغبةُ الصادقة في التنبيه والتذكير والتبصير، والنصيحةُ المُفْضِيَةُ إلى التسامي والارتقاء والإصلاح والانتقال إلى حال أسمى وأطهر وأفضل، تليق بشرف تسميتهم بالإسلاميين.

والله أسأل أن يتقبل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، والحمد لله رب العالمين.

الدكتور محمد علي الهاشمي

تَمْهِيد

في حياة الإسلاميين إيجابياتٌ كثيرة، لا ينكرها منصف، ولا يماري فيها عاقل عادل، كغلبة الجدّ على سلوكهم وتصرفاتهم، واحترامِهم للحق ووقوفِهم عنده، وتضحياتِهم الكثيرة المتنوعة في سبيل الله، واتصافِهم بالصدق والأمانة والوفاء والبرّ... وما إلى ذلك من صفات إيجابية كثيرة، لا مجالَ لسردها في هذه العُجالة.

وللإسلاميين إلى جانب هذه الإيجابيات الكثيرة سلبياتٌ، لا سبيلَ إلى إنكارها أو التهرب منها أو المغالطة فيها؛ ذلك أن الإسلاميين بشر من بني آدم، وكلُّ بني آدم خطّاءٌ، وخير الخطّائينَ التوّابُونَ كما قال رسول الله ﷺ[1].

والوقوف عند سلبيات الإسلاميين على سبيل النقد الذاتي، بُغيةَ معالجتها والتخلص منها من

---

(١) حديث حسن رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

النصيحة التي جعلها رسول الله ﷺ الدينَ كلَّهُ بقوله: «الدينُ النصيحةُ. . .»[١].

وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول: «رحمَ اللَّهُ امرءاً أهدى إلى عمر عُيوبَه»؛ ذلك أن قبول سماع العيوب للتخلص منها علامةُ صحة ووعي وبعد نظر، ودليلٌ على الرغبة الصادقة في التحسّن والرقيّ والتقدم، ولذلك عدّ عمر رضي الله عنه الإشارة إلى العيب من الأخ الناصح هديةً تستحق الدعاء لمهديها.

ومن هنا كان الإسلاميون الصادقون الواعون هَدْيَ دينهم يرحّبون بالنقد الذاتي واستعراض الأخطاء والعيوب إن وقعت منهم، بغية التخلص منها، تمشّياً مع هَدْي دينهم ومبادىء دعوتهم القائمة على الحق والعدل والعمل الصالح.

وهذا ما حدا بي إلى عرض سلبيات، لاحظتُ وقوعَ بعض الإسلاميين فيها، عسى أن يكون هذا العرض حافزاً لهم على التخلص منها.

ومن أهم هذه السلبيات:

---

(١) رواه الشيخان.

١

انصراف الداعية
إلى إصلاح الناس وإهمال أولاده

تقوم حياة المسلم الحق الواعي أحكام دينه على الموازنة الحكيمة في أموره كلها، سواءٌ منها ما كان من أمور الدنيا أو الآخرة، فلا تشغله أمور الدنيا عن أمور الآخرة، ولا تشغله أمور الآخرة عن أمور الدنيا، وإنما يوازن في أعماله وتصرفاته بين ما يجب عليه فعلُه لتستقيم أمور حياته في هذه الدنيا، وما يجب عليه فعلُه ليضمن الفوز في الآخرة والنجاة من النار.

وقد تلتبس على الإنسان المسلم الأمور، فيحسب بعضها من أمور الدنيا فيتساهل فيها، وهي في الحقيقة من أعمال الدنيا والآخرة معاً، كالعناية بتربية الأولاد وتوجيههم التوجيه الإسلامي السليم. ومن هنا

نراه يفضل على عنايته بأولاده الانصرافَ إلى توجيه الناس ودعوتهم إلى الحق، وتبيان معالمه في شتى شؤون الحياة، فإذا هو داعية كبير من الدعاة، لا تكاد تراه إلاَّ في حلقة من حلقات التوجيه، أو في مؤتمر من مؤتمرات الإصلاح، أو في اجتماع يتدارس فيه الدعاة أمور الدعوة والدعاة، وما يعترض طريقهم من صعوبات، وما يوضع في طريق الدعوة من عراقيل، عليهم أن يعملوا أفكارهم في إيجاد الحلول الناجعة لها جميعاً.

ومثل هذه الداعية المتحمس الصادق المندفع إلى العمل في سبيل الله، لا يكاد يرى زوجه وأولاده إلاَّ خُلَساً من الوقت، لا تكفي للتعرف على أحوالهم، والوقوف على مسار تكوينهم النفسي والعقلي والفكري والاجتماعي، وحجته في ذلك أنه مشغول، مشغولٌ جداً بأمور الدعوة، ولا وقت لديه للجلوس إلى أولاده ليتفقد أحوالهم، ويعرف الكتاب الذي يقرأون، والرفيقَ الذي يصاحبون، والأعمالَ والهواياتِ التي يزاولون، والمخابراتِ الهاتفيةَ التي يرسلون. وإذا هو

يُفاجَأ بعد فترة تطول أو تقصر بانحراف ولده أو ابنته، أو تقصيرهما على الأقل في واجباتهما الإسلامية، أو غير ذلك مما لا ينبغي أن يقع في بيت مسلم، على رأسه داعية عامل في سبيل الله.

وقد يقع هذا الانصراف والذهول من الأخ الداعية، فترتد سلبياته وأضراره على الأبناء ولا سيما البنين، وقد يقع من الأخت الداعية، فتكون السلبيات والأضرار على الأبناء ولا سيما البنات.

وما كان شيء من ذلك ليقع، لو أن الأخ الداعية أو الأخت الداعية قد وقر في نفسيهما أن واجبهما نحو أولادهما أكبر من واجبهما نحو الناس الآخرين، وأن مسؤوليتهما عن صياغة نفوس أبنائهما وتربيتهم التربية الإسلامية اللائقة مقدَّمةٌ على مسؤوليتهما عن دعوة الآخرين إلى الخير وتوجيههم التوجيه السليم، كما نطقت بذلك النصوص القاطعة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ

أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾[١].

«كُلُّكُمْ راعٍ، وكلكمْ مسؤولٌ عن رعيته: الإمامُ راعٍ ومسؤولٌ عن رعيتِه، والرجلُ راعٍ في أهلِهِ ومسؤولٌ عن رعيته، والمرأةُ راعيةٌ في بيت زوجِها ومسؤولةٌ عن رعيتها، والخادمُ راعٍ في مال سيدِه ومسؤولٌ عن رعيتِه، فَكُلُّكُمْ راعٍ ومسؤولٌ عن رعيتِه»[٢].

والداعية الحكيم اللبق الحصيف، سواء أكان رجلاً أم امرأة، هو الذي يوازن بين واجباته نحو أولاده وواجباته نحو دعوته، وما تتطلب من أعمال يقدّمها لإصلاح الآخرين، ويعطي لكلٍّ حقَّه من الوقت والجهد والعناية والاهتمام، بحيث لا يطغى جانب على آخر.

وليس هذا بالأمر العسير، إذا عرف هذا الأخ كيف ينظم وقته، وكيف يوزّع واجباته على وقته[٣]. فالتخطيط وتنظيم الوقت وتوزيع الأعمال على

---

(١) التحريم: ٦.

(٢) متفق عليه.

(٣) انظر أهمية الوقت والتخطيط في حياة الإنسان المعاصر ص ١٩٣ من كتاب ومضات الخاطر للمؤلف.

الأوقات، من أهم ما ينبغي أن يتحلى به المسلم المعاصر في هذه الأيام التي كثرت فيها الأعمال وتشعبت، وازدادت الضغوط على الإنسان وتعددت.

وإن لنا في سيرة الرسول ﷺ لأسوة كبيرة؛ فقد كان صلوات الله عليه يصدع بدعوة، ويبني أمة، وينشىء مجتمعاً، ويصوغ نفوساً، فلا يصرفه شيء من هذا كله عن أن يكون إنساناً مثالياً في قيامه بواجباته الأخرى نحو أزواجه وأولاده، وأقاربه وأرحامه، دون أن يطغى جانب من هذه الجوانب على جانب آخر.

ولقد عُرِفَ عن الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله أنه ما كان يبدأ يومه حين يخرج من بيته إلاَّ ومعه ورقة عمل يومية، أعدّها قبل خروجه من البيت، فصنّف فيها الأعمال التي ينبغي أن يقوم بها في هذا اليوم، حسب الأولويات، موزّعة على الأوقات الكافية لإنجازها. وبهذا التخطيط وهذا التنظيم استطاع هذا الداعية الكبير أن يقدم للدعوة خدماتٍ جُلَّى، لا تزال آثارها ماثلة إلى اليوم.

إن البيت المسلم الذي أكرمه الله بأب داعية، أو

أم داعية، بيت محظوظ، أُتيح للأولاد فيه أن يجنوا ثماراً يانعة طيبة من الوالدين الداعيتين، فينبغي ألا يُحرَم الأولاد من هذه الثمار، بل ينبغي للوالدين الداعيَتيْنِ أن يقدّماها لِفِلَذِ أكبادهما قبل تقديمها لأحد من الناس.

وإن لم يفعلا، كانا مقصّرَيْن في حق أبنائهما، مفرِّطَيْنِ في تربيتهم وتوجيههم، وهما يحسبان أنهما يحسنان صنعاً.

٢

الإخلاف بالوعد

ينظر الناس إلى الجيل المعاصر من الإسلاميين على أنهم ترجمة حية لمبادىء الإسلام السمحة وقِيَمه النبيلة وأخلاقه العالية، فلا يتوقعون منهم إلاَّ الصدق والخير والصواب، ويحسنون بهم الظن، وقلّ مَنْ يسيئون بهم الظن. وهذه السمعة الحسنة لم تأتِ من فراغ، وإنما جاءت من تحلّي معظم الإسلاميين بأخلاق الإسلام وتطبيقهم أحكامه على أنفسهم ومَنْ يعولون.

هذه هي الصورة الجميلة الناصعة التي انطبعت في أذهان الناس عن الإسلاميين. ولهذا تراهم يغتفرون الخطأ يقع من الإنسان العادي، ويحتملون وقوعه منه. أما الخطأ يقع فيه الأخ الداعية إلى الإسلام، فيُحدِث

عند الناس صدمة موجعة، وخيبة أمل مؤلمة، لأنهم لا يتوقعون وقوع الأخ الداعية فيه.

وهذا مَرَدُّه إلى قلة أخطاء الإسلاميين إذا قِيست بأخطاء غيرهم، وليس لأن الإسلاميين مُنَزَّهون عن الأخطاء. فالإنسان معرَّض للخطأ مهما علت مكانتُه وعلا شَأْوُه في ميادين الخير والعمل الصالح، وهذا ما أكّده رسول الله ﷺ بقوله: «كلُّ ابنِ آدمَ خَطّاءٌ وخيرُ الخَطّائين التّوابونَ»[١].

والإسلاميون، إن شاء الله، في معظمهم من التوابين الذين لا يَرِينُ الخطأ على أعمالهم، ولا تستحوذ الغفلة على أنفسهم، ولا يستولي الشيطان على منطلقات التفكير في عقولهم، فهم إذا ما زلّت بهم القدم مرة، أو جانبهم الصواب في قول أو عمل، سرعان ما ينخلعون من زلّتهم، ويستغفرون من خطئهم، ويعودون إلى محجّة الخير والصواب، ويؤوبون إلى حمى ربهم الآمن، منيبين مخبتين مستغفرين:

---

(١) حديث حسن رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[1].

والذي نعدّه من السلبيات والمآخذ التي لا تليق بالأخ المسلم وقوعُه في بعض الأخطاء وإصرارُه أحياناً عليها، وتمسّكه بها، مع إقامة الحجة عليه من إخوانه الذين هم أكبر منه سناً وسابقة ومقاماً، وإنكارِهم عليه إصرارَه على الأخطاء التي تورّط فيها، كإخلافه في وعد قطعه على نفسه، أو تخلّفِه عن إنجاز عمل وَعَدَ بإنجازه، أو وقوفِه موقفاً مُتَعَنِّتاً يسيء إلى سمعته وسمعة الإسلاميين قاطبة، ويضرّ بالعمل الدعوي كله، وما ذلك إلاَّ لتعاظم نفسه في نظره، وتضخّم (أناه)، وثقته المفرطة برأيه، وصعوبة اعترافه بأنه أخطأ، مع أنه يردّد حديث رسول الله ﷺ السالف الذكر: «كل ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التوابون». ولو أن هذا الأخ عاد إلى نفسه في ساعة صفاء وخالف هواها، واستمع إلى نصح إخوته ممن هم أكثر منه تجربة وخبرة، لهان عليه

---

(١) الأعراف: ٢٠١.

أن يتراجع عن رأيه، ويعترف بخطئه، ويكون بذلك من التوابين الذين نوّه بهم الحديث الشريف المذكور آنفاً.

والإخلاف بالوعد من أسوأ الصفات التي يُبتَلى بها الإنسان المتحضِّر السويّ، بَلْهَ الإسلاميّ الذي يعدّ الإخلاف بالوعد من صفات المنافقين التي عدّدها رسول الله ﷺ بقوله: «آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدّثَ كذبَ، وإذا وعدَ أخلفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خانَ»[1]. وفي رواية لمسلم: «وإن صامَ وصَلَّى وزعمَ أنه مسلمٌ».

فما ينبغي للإسلاميين أن يتورّطوا في الإخلاف بالوعد، مهما كانت الظروف والأحوال والضغوط، بل ينبغي أن يكونوا رجالاً يحترمون كلمتهم، ويفون بعهودهم، ويوفّون بالتزاماتهم، مهما جرّ عليهم ذلك من أضرار ومضايقات وإحراجات؛ لأن الوفاء بالوعد تأكيد لصحة إسلامهم ونقاء سريرتهم من النفاق، ودليل على قوة شخصيتهم ورجولتهم، وعلى رقيّهم وسموّ منزلتهم. وما يتهاون في الوفاء بالعهد أو بالوعد إلاَّ

---

(١) متفق عليه.

إنسان في دينه رِقَّة، وفي تكوينه الخلقي خلل، وفي شخصيته ضعف، وفي طبعه التواء، وفي تربيته الاجتماعية تدنٍّ وانحطاط.

وأغلب الحالات التي نجد فيها بعض الإسلاميين يتورطون في الإخلاف بالوعد هي الحالات التي ينزغ فيها الشيطان بين الإخوة، لخلاف في وجهات النظر، أو لتباين في المواقف والاجتهادات، وقد تكون تلك الاختلافات مبنية على أوهام وتخيلات وسوء ظن أكثر مما هي مبنية على تقصّي الحقائق والاحتكام إلى منطق الشرع. ففي مثل هذه الحالات يذرّ قرن الفتنة، وتبرز سخائم النفوس، ويعلو صوت الانتصار للنفس. ومن هنا يتردّى بعض الإسلاميين في حمأة الخلاف، فلا يفون بوعود قطعوها على أنفسهم، ويتنصّلون من عهود سجلوها بأيديهم، وقد يكونون قد وقّعوا عليها بأسمائهم.

وأحسب أن هؤلاء الإخوة، بعد انقشاع الفتنة، يحسّون في قرارة نفوسهم بتأنيب الضمير على إخلافهم بالوعد، ويتمنّون ألّا يتورّطوا في الوقوع فيه.

لقد جاء هَذي الإسلام يُؤصّل خلق الوفاء بالوعد في نفوس المسلمين والمسلمات، وعدّ هذا الخلق العالي من أصل الأخلاق الإسلامية، ومن أكثرها دلالة على صحة إيمان المسلمين والمسلمات وحسن إسلامهم، وقد جاءت بذلك الآيات والأحاديث الكثيرة، تَحُضُّ على التحلّي بهذا الخلق، وتشير إلى أنه من علامات الإيمان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾(١).

﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾(٢).

وجاء العهد في النظم القرآني مضافاً إلى الله، فاكتسب بتلك الإضافة الجلالة والقدسية والاحترام، ووجب الوفاء به، مهما تكن الظروف والأحوال:

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾(٣).

والإخلاف بالوعد، والتحلل من العهد، من

---

(١) المائدة: ١.

(٢) الإسراء: ٣٤.

(٣) النحل: ٩١.

المقت السيء الكبير الذي كرهه الله لعباده المؤمنين، ولم يرض لهم أن يُسِفُّوا إليه، ولذلك جاء خطابه لمن تورّطوا فيه بصيغة إنكار معاتب مؤنّب:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾[1].

وعدّ رسول الله ﷺ الإخلاف بالوعد من صفات المنافقين، كما رأينا في الحديث المتفق عليه الذي ورد آنفاً.

إن حسن إسلام المرء لا تؤكده العبادات التي يقوم بها من صيام وصلاة وحج فحسب، وإنما يُؤكده تفاعل نفسيته بتعاليم الإسلام، وقِيَمه وأخلاقه، ومن أبرزها الوفاء بالوعد. فليسأل كل أخ نفسه: هل تحقّق فيه هذا الخلق العظيم من أخلاق الإسلام؟ فإن كان الجواب بالإيجاب، كان هذا الأخ حقاً من الإسلاميين الصادقين.

(١) الصف: ٢، ٣.

٣

غياب النقد الذاتي

من علامات الصحة في مسلك الإنسان وتصرفاته وأعماله: لجوءُه إلى النقد الذاتي بين حين وآخر، في كل عمل مهم يُسنَد إليه، أو يقوم به من تلقاء نفسه، فيعرض مسار أعماله وتصرفاته على محك النقد، ويسائل نفسه: أكنتُ مصيباً يا تُرى فيما قمت فيه من أعمال؟ أم جانبني الصواب وخانني التوفيق؟ أم كنت مصيباً في جانب، ومخطئاً في جانب؟ ولا يتردد في الاستماع إلى رأي غيره فيما قام به من أعمال، ولا سيما آراء العقلاء الذين يُعتَدّ بآرائهم.

إن مثل هذا الإنسان خليق أن يستفيد من تجاربه، ويتعظ من هَفَواته وسَقَطاته، إن كان له هَفَوات وسَقَطات.

والإسلاميون الذين وَعَوا هَدْي دينهم يعون تمام

الوعي هذه الحقيقة، ويقدِّرون قيمة تقويم الإنسان لأعماله، ونقده الذاتي لها، ويحضّون على الاستماع إلى النصيحة، تصدر عن العقلاء المخلصين.

ولكن المشاهَد أن بعضهم، بل كثيراً منهم، يصعب عليه الاعتراف بالخطأ، أو التراجع عن الرأي، ومن هنا يغيب من حياتهم شيء اسمه النقد الذاتي، ولا يصغون إلى نصيحة ناصح، مهما ثبت لهم صدقُه وإخلاصُه فيما يقول، بل إنهم يلتمسون الأعذار، ويعدِّدون المسوّغات لتبرئة أنفسهم من الخطأ الذي ثبت تورّطهم فيه، ويجادلون في ذلك جدالاً لا هوادة فيه ولا حكمة ولا تعقّل، ودافِعُهم إلى هذا كله نفورُهم من النقد، وكراهيتُهم للاعتراف بالخطأ أو التقصير، كأنهم لم يسمعوا قول القائل: «الرجوع عن الخطأ خير من التمادي فيه»، ولم يسمعوا القول المأثور عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «رحمَ اللَّهُ امرَءاً أَهْدَى إلى عمرَ عيوبَه»، ولم تبلغهم قالةُ عمر أيضاً الخالدة عندما عارضته امرأة في تحديد المهور: «أصابت امرأة وأخطأ عمر»... وغير ذلك من الأقوال المأثورة في

فضيلة تقبّل النقد والارتياح لتقويم الأعمال والتصرفات.

إن أمثال هؤلاء الإخوة يستمرون في تخبّطاتهم وسَقَطاتهم، وهم يحسبون أنفسهم مصيبين محقّين، ولا يمكن أن يتخلصوا مما هم فيه ما داموا مجانبين النقدَ الذاتي، معرضين عن سماع الرأي الآخر فيهم.

كثير من الإسلاميين جرّوا على دعوتهم وإخوانهم البلايا والرزايا في قرارات اتخذوها، وأعمال قاموا بها، وإذا ما سألتهم عن أفعالهم وتصرّفاتهم التي لا تزال آثارها الضارة ماثلة للعِيان، أجابوك: إنهم لم يخطئوا البتَّةَ، وإن ما فعلوه إنما هو عين الصواب، ولكن الظروف لم تساعد على تحقيق النتائج الحسنة التي كانوا يتصورونها، أو كانوا يَصْبون إليها، وكأنهم يريدون أن يؤكدوا أنهم فوق النقد.

وهذه أختٌ داعية، تقف من تزويج ابنتها موقفاً عنيفاً صارماً، لا يقرّه الشرع ولا العقل ولا المنطق الاجتماعي السليم، إذ ترفض سماع رأيها في الشاب المتقدم لخطبتها، مُصادِرةً حقَّ الفتاة الشرعيَّ في إبداء رأيها فيمن سَتُزَفّ إليه، وتهدّدها، وتتوعّدها، إن هي

خالفت عن أمرها في هذه المسألة المصيريّة في حياة الفتاة، وينجُم عن ذلك مآسٍ لا مجال لذكرها، ومع ذلك كله تصرّ هذه الأخت الداعية على أنها لم تخطىء فيما بدر منها نحو ابنتها من أعمال وتصرفات، وكيف يُتَصَوَّرُ الخطأُ من داعية كبيرة، هي فوق النقد، وأكبر من النقد؟!!

إن من علامات نضج الإسلاميين رجالاً ونساءً، ومن الدلائل القاطعة على سلامة تفكيرهم: إقبالَهمْ على النقد الذاتي من تلقاء أنفسهم، وترحيبَهم بالنقد يصدر من غيرهم، وتقبّلَه بصدور رحبة ونفوس سمحة راضية، ولا ريب أن أمثال هؤلاء الإخوة والأخوات يتطوّرون دوماً نحو الأفضل. وعلى النقيض من ذلك أولئك الإخوة والأخوات الذين تعاف نفوسهم النقد الذاتي، وينفرون من النقد موجّهاً من غيرهم، ويعدّون الرأي الآخر بمثابة سهم مصوَّب إلى شخصياتهم وكفاءاتهم العالية، فهؤلاء ينتكسون دوماً إلى أسفل، ويزدادون إسفافاً وخيبةً وتردّياً على مر الأيام، وما ينبغي لمن ينتسبون إلى الإسلام ويسمّون أنفسهم بالإسلاميين أن يكونوا كذلك.

❑❑❑

٤
تضخّم «الأنا»

لا نغالي إذا قلنا: إن تضخّم «الأنا» لدى الإنسان من أعظم الشرور التي تصيبه في حياته. وأعني بتضخّم «الأنا» لدى الإنسان ثقتَه المفرطة بنفسه، وتعاظمَها لديه، وحرصَه على نصرتها، ولو على حساب الحق.

وأول مَنْ أعلن هذه الجريمةَ النكراءَ إبليس، إذ اعترض على ربّ العزة الذي خلق آدم من طين بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦﴾[1].

ومِلاكُ سعادة الإنسان في التوسّط في نظرته إلى (أناه)، فلا هو يحتقر نفسه، بحيث يتلقّى لَطَمات الإهانة والمذلة من الناس فلا تثور لها نفسه، ولا هو

(١) صۤ: ٧٦.

يغالي في تعظيم نفسه فلا يرضى أن تُخدَش بمساءلة أو نقد أو مراجعة أو حساب. وهذه تربية الإسلام للنفس، وهذه تزكية الإنسان لها، بجعلها تتقبَّل دوماً كلمةَ الحق، وتنصاع أبداً لتوجيه الهداية: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[1].

وإذا ما نظرنا إلى الإسلاميين وجدنا معظمهم معتدلاً في نظرته إلى نفسه، سويّاً في محاسبتها ومراجعتها، إن هي جنحت به إلى الهوى، وجنفت للإثم والحَيْدَة عن الحق.

ولكن فيهم مَنْ تعاظمت نفسه في نظره وتضخَّمت، فإذا هي فوق كل شيء في مقاييسه وموازينه. والخطورة في مثل هذه الحالة أن النفس المتضخِّمة تتخذ لدى الإنسان المبتلَى بها مسلكاً دقيقاً في نصرتها واستعلائها لا يكاد يُحَسُّ به، حتى إنَّ صوتها ليعلو في بعض الأحيان على صوت الحق الذي

---

(١) الشمس: ٧ ــ ١٠.

يؤمن به صاحبها، فإذا هو يقيس كل شيء في أعماله وتصرفاته حَسَبَ ما تهوى نفسه وما ترتاح إليه، وحَسَبَ ما يصيبها من نفع أو ضُرّ.

ومما لا ريب فيه أن سيطرة الإنسان على نفسه، وإيقافها عند حدّها، مرتقى صعب، لا يرقى إليه إلاَّ الأتقياء الصالحون، الذين راضوا نفوسهم على أن تهون في سبيل الله، وتهون في سبيل الأخوَّة في الله، وتهون في سبيل فعل الخير، وإشاعة النفع للناس، ودفع الضرّ عنهم.

وهذا ما يدركه الإنسان المسلم الكيِّس الفَطِن الذي عناه الرسول ﷺ بقوله: «الكيِّس مَنْ دانَ نفسَه...»[1].

أما إذا سيطرت النفوس على أصحابها، وعلا صوتها على صوت الحق في أعماقهم، فهي الطامَّة الكبرى والمصيبة العظمى التي تعم الأفراد والجماعات، وتجتاح الأمم والشعوب. وما نراه اليوم

---

(١) حديث حسن أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه.

في أفغانستان من اقتتال بين إخوة الجهاد بالأمس صورة واضحة للشرور التي تنجم عن نَزَغات النفوس، وإنها لنَزَغاتٌ تؤرّث الأحقاد وتديم العداوات، وصدق الشاعر إذ يقول:

وقد تنبتُ الأطلالُ في دِمَنِ الثَّرَى
وتَبْقَى حَزازاتُ النُّفوسِ كما هيا

لقد خيَّب المجاهدون الأفغان المتقاتلون آمال المسلمين فيهم، بعد أن رقصت قلوب ملايين المسلمين فرحاً بانتصاراتهم، وما كان يدور في الأخلاد أبداً أن ينتكسوا هذه النكسة الخطيرة، ويقعوا في ذات البين التي هي الحالقة، كما قال رسول الله ﷺ. ولو أن كل زعيم من هؤلاء الزعماء استطاع أن يدوس على (أناه)، ويستعلي على وسوسات النفس الأمَّارة بالسوء، وجاء إلى أخيه مبادراً إلى الصلح والتصافي وإزالة الجفوة، مبتغياً الصالح العام، ولو لم يأتِ عن طريقه، لما وصلت الأمور بين إخوة السلاح والجهاد إلى ما وصلت إليه، ولكنها النفوس ووسوساتها المردية، ونزغاتها القاتلة المدمِّرة.

ولو أننا استعرضنا الانشقاقات التي صدَّعت الصف الإسلامي، والخلافات التي ذر قرنها بين الإسلاميين نرأينا أن معظمها كان بسبب وسوسات النفوس واستعلائها وتعاظمها وحب نصرتها.

ومن هنا كان من أهم مبادىء تربية النفوس: ترويضُها على التواضع والمرونة والتجاوز والصفح والتناسي، وهذا ما جاء به هَدْي القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾[1].

وقوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[2].

وقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[3].

والإسلاميون أول مَنْ يُدْعَوْنَ إلى تمثّل هذا الهَدْي الحكيم، وإلى تحكيمه في نَزَوات نفوسهم وكسر شِرّة الأنانية فيها.

---

(١) الحجر: ٨٥.

(٢) آل عمران: ١٣٤.

(٣) الأعراف: ١٩٩.

وإذا ما أخفق الناس العاديّون في الوصول إلى هـذا المـرتَقَـى مـن تـرويـض النفـوس، فمـا ينبغـي للإسلاميين أن يخفقوا، بل هم خليقون بالارتفاع إليه، بعد أن اختاروا لأنفسهم طريق الإسلام، وعاهدوا ربهم على الأخذ بهَدْيه في أمورهم كلّها.

٥

التعصّب

التعصّب خلق وبيل مستكره، ما ابتُلِيَ به إنسانٌ إلاّ نفر منه الناس، وانفضّوا من حوله؛ ذلك أن التعصّب يغلق منافذ العقل، ويحجب نور الحقيقة، ويعشي الأبصار، ويجعل الإنسان مغلول التفكير، ضيق الأفق، مطموس البصيرة، منحازاً، بعيداً عن الموضوعية والحَيْدَة والاعتدال.

وللتعصّب ألوان وأشكال يبدو فيها الإنسان المتعصّب، فقد يكون متعصباً لرأيه، أو لمذهبه، أو لعالم يحبه، أو لجماعة ينتسب إليها، أو لأمه وأبيه، أو لبلده، أو لجنسه...

وهذه الألوان من التعصب تصيب الناس على اختلاف نزعاتهم ومشاربهم، تكثر في الأوساط

والبيئات الضيقة المغلقة والمتخلّفة إسلامياً ولو كانت غنية، وتقل في الأوساط والبيئات المنفتحة المتنورة المتقدمة إسلامياً ولو كانت فقيرة. ويكون لذكاء الإنسان وسعة أفقه ورجاحة عقله ونقاء عقيدته وصحّة تدينه أثر كبير في مجانبته للتعصب وبعده عنه، أو في مقاربته للتعصب والإيغال فيه.

ومن هنا كان المأمول ألا تصيب آفة التعصب الإسلاميين، وبخاصة أصحاب العقيدة النقيّة الناصعة والتدين الواعي الصحيح، ولكن الواقع يشهد أن منهم كثيراً من المتعصبين، ويبدو تعصّبهم في شكل من الأشكال المذكورة آنفاً.

وهذا من السلبيات التي تؤخذ على الإسلاميين، وفيما يلي بيان ذلك:

التعصب للرأي:

تجد بعض الإسلاميين متعصبين لرأيهم، لا يحيدون عنه، ولو تبين لهم من مناقشة غيرهم لهم أن في رأيهم خطأ ينبغي تصحيحه. إنهم ليجدون

صعوبة كبيرة في التراجع عن رأيهم، ولذلك هم يجادلون ويكابرون ويماحكون، مصرّين على وجهة نظرهم، مهما أورد إخوانهم لهم من حجج منطقية مقنعة. وهذا هو التعصب الممقوت الذي ينبغي أن يتخلص منه مَنْ ابْتُلِيَ به من الإسلاميين؛ لأن مبتَغَى الإسلاميِّ الصادقِ الوصولُ دوماً إلى الحق، سواء أجاء الحق عن طريقه أم عن طريق غيره.

التعصّب للمذهب أو التجمّع:

وهو لون من ألوان التعصّب الذي ما كان للإسلاميين أن يقعوا فيه، مهما تكن الظروف والأحوال؛ ذلك أن الإسلاميين المعاصرين هم من أوعى الناس اليوم ومن أكثرهم إدراكاً للأولويات التي ينبغي أن نقدمها على غيرها في العمل الإسلامي، ومن أهم هذه الأولويات وحدة المسلمين في رأيهم العام وفي سلوكهم، وفي العمل الجاد المثمر المخلص على نصرة الإسلام والتمكين له في الأرض. وهذا لا يتأتّى للإسلاميين إلاَّ إذا كانوا إخوة متحابّين متعاونين متكافلين على اختلاف مذاهبهم الفقهية وآرائهم الاجتهادية.

إن طريق الدعوة إلى الله واسعة لاحبة، تتسع لأتباع المذاهب الأربعة والسلفيين وغيرهم من الجماعات الإسلامية. وطول الطريق، وكثرة العقبات التي تعترض مسيرة الدعاة إلى الله، تحتّم على هؤلاء جميعاً أن يكونوا يداً واحدة وقلباً واحداً وفكراً دعوياً واحداً، في مواجهة الجاهلية والعلمانية والصليبية واليهودية وغيرها، ولا تغفر الدعوة لأحد من هؤلاء الدعاة جميعاً أن تشغله فرعياته الفقهية، وخصوصياته المذهبية، وآراؤه الاجتهادية، عن العمل الكبير في هذا الطريق اللاحب الطويل. وكل انشغال في هذه الفرعيات الفقهية والخصوصيات المذهبية والآراء الاجتهادية، وكل وقوف عندها، يعطّل مسيرة العمل الإسلامي أو يؤخرها أو يعرقلها، أو يسبّب شيئاً من الجفوة بين الإسلاميين: من التعصّب الذميم الممقوت الذي ينبغي أن يختفي من حياة الإسلاميين، إذا كانوا صادقين مع ربهم، مخلصين لدعوتهم، محبّين لدينهم، متطلّعين إلى نصرته والتمكين له في الأرض.

ولا يغيب عن بال أحد من الإسلاميين أن مجال

الدعوة إلى الله واسع رحب، وأن العمل على نصرة الإسلام يتطلب جهوداً كثيراً في مجالات متعددة، كالتعليم والوعظ والتوجيه والإرشاد والسياسة والإعلام، والخدمات المخلصة الصادقة، تُقدَّم إلى الشعوب باسم الإسلام، كإنشاء المستشفيات ودور العجزة والنوادي وإسعاف المتضرين والمنكوبين والمحتاجين وغير ذلك من أعمال البرّ والإحسان.

ولا ضيرَ أن تتعدد التجمعات الإسلامية، وتختلف مناهجها وطرائقها وتصوراتها في العمل الإسلامي، بل هذا شيء طبيعي، إذا حسنت النوايا وصدقت النفوس مع الله، وتوحّد الهدف الأسمى، وهو نصرة الإسلام والتمكين له في الأرض، طبقاً للمقالة الحكيمة المشهورة: «نعمل معاً فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه».

أما الشيء غير الطبيعي، بل الممقوت المستكره البغيض المدمِّر، أن يحسّ كل تجمّع أنه وحده على الحق، وأن غيره مخطىء في طرقه، ضالّ في معتقداته وتصوراته. فهنا الطامّة الكبرى، والمصيبة العظمى،

التي تفلّ من عزيمة المسلمين، وتشتّت جهودهم، وتؤخر مسيرتهم، وتشمت بهم الأعداء، وتجعلهم يطمعون في إذكاء نار الفرقة والتمزّق والتباغض فيما بينهم، مستغلّين بعضهم لضرب بعض.

إن على كل إسلامي أكرمه الله بالانتساب للعمل الإسلامي في أي مجال من المجالات أن يحسّ في أعماقه أنه أخ لكل إسلامي آخر يعمل في مجال غير مجاله، وأن أخوّة الإسلام تجمع بين جميع العاملين للإسلام في شتى المجالات والمذاهب والاتجاهات والتجمعات، وأن طريقهم جميعاً واحد، وهدفهم واحد، وغايتهم واحدة. وينبغي أن يقوم شيء من التنسيق والتفاهم بين الإسلاميين، كلٌّ في المجال الذي يعمل فيه، وتنصبّ الجهود في النهاية في حياض نصرة الإسلام والتمكين له وإعلاء كلمته.

ولو حدث شيء من هذا التآخي والتفاهم والتنسيق والتعاون بين الإسلاميين، لما رأينا التجمعات الإسلامية في كثير من أقطار المسلمين يكيد بعضها لبعض، ويقف بعضها في مواجهة بعض، ويعطي

بعضها أصوات النّاخبين لأعداء الإسلام، ويحجبها عن إخوانهم المسلمين، ويبدي في تسويغ ذلك حججاً واهية، لا يقبلها عقل، ولا يرضاها منطق، ولا يجيزها دين. وهذا من أخطر السلبيات التي يجب أن تختفي من حياة الإسلاميين.

التعصّب لعالم أو جماعة:

قد يألف الواحد منا عالماً يثق بدينه وعلمه، ويرتاح لأسلوبه وطريقته ومعاشرته، وقد تتوطّد الأواصر النفسية والقلبية بين الأخ والعالم الذي يتردد الأخ على دروسه ومجالسه، فيحبّه، ويجلّه، ويعلي من قدره، ويثني عليه. ولكن هذا شيء، والتعصب لهذا العالم شيء آخر. فمما لا ينبغي أن يغيب عن ذهن أي أخ من الإسلاميين أن العلماء بشر، وهم معرَّضون للخطأ؛ إذ كل ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التوابون، كما يقول رسول الله ﷺ، وقد يقع هذا العالم بخطأ أو لا يقع، وقد يكون له رأي تفرّد به، وخالف به غيره من العلماء، وهو في رأيه هذا على حق، أو على شيء من الحق، أو على شيء مخالف

لـلأفضـل مـن الـرأي. وفـي هـذه الحـالات جميعـاً ما ينبغي للأخ المحب لهذا العالم أن يقع في التعصب له، ويدافع عن رأيه كله، وينزّهه عن كل خطأ ومأخذ، بل ينبغي أن يكون موضوعياً في حكمه على العالم، على ما يكنّ له من مشاعر المودة والإجلال والتقدير. وهذا هو الخلق الأمثل الذي ينبغي أن يتصف به الإسلاميون.

وكذلك الأمر في انتساب الأخ إلى جماعة، أحبها، ووثق بقيادتها وأفرادها، وربطت الأيام بين قلبه وقلوبهم برباط وثيق من المودة والاحترام والثقة. فهذا كله ليس مدعاة للأخ أن يتعصب لهذه الجماعة التي أحبها ووثق بها، بل ينبغي أن يقول الحق إذا رأى في جماعته ما يستحق النقد والمراجعة. وهذا من أدب القرآن الكريم الذي أدّب به المؤمنين: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[1]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠﴾[2] فمهما كانت الجماعة عزيزة

---

(١) الأنعام: ١٥٢.

(٢) الأحزاب: ٧٠.

حبيبة إلى نفسه، فالله أعزّ وأحبّ، ومرضاته أوجب وأولى وألزم.

ولا يغيب عن بال الإسلاميين الواعين الحصيفين أن مُجانبةَ التعصب وقولَ الحق وإظهارَ العيوب والمآخذ في إطار أدب الأخوّة والإسلام هو في مصلحة الجماعة وبنائها وتطويرها ودفعها إلى الأمام، وليس تجريحاً لها أو غضّاً من قيمتها أو نيلاً من مكانتها؛ فالنقد الصادق المخلص من أحد أبنائها هو النصيحة بعينها التي عناها الرسول الكريم بقوله: «الدين النصيحة...»[1]، والتعصب لها والتغاضي عن أخطائها والدفاع عن تلك الأخطاء بالباطل: غشّ لها وخيانة وتدمير.

التعصب لأحد الوالدين أو لكليهما:

للوالدين بلا ريب مكانة متفرّدة في قلوب الإسلاميين الذي وَعَوْا هدْي دينهم، وخالطت بشاشةُ هذا الدين وروحانيتُهُ قلوبَهم ومشاعرهم؛ ولهذا قد

---

(١) رواه الشيخان.

يحمل هذا الحبُّ الكبيرُ وذلك التقديرُ البالغُ بعضَ الإسلاميين على المبالغة فيهما، فإذا هم يخلطون من حيث يشعرون أو لا يشعرون بين المحبة العميقة والمغالاة فيها الموصلة أحياناً إلى التعصب لأحد الوالدين أو لكليهما، فما يقوله الوالد أو الوالدة هو القول الفصل، لا معقّب عليه، ولا ناقض له، ولا رادّ. وهذا واضح من التعصب الممجوج، وإن كان نحو أعز عزيزين على قلوب الأبناء، وهو إن وُجد في حياة بعض الناس العاديين، ولا سيما البنات المتعصبات لأمهاتهنّ، فما ينبغي أن يوجد في حياة الإسلاميين، سواءٌ أكانوا رجالاً أم نساءً.

ولا يغيب عن البال أن عدم التعصب للوالدين لا يعني مواجهتهما بفظاظة وغلظة وجفاف وقسوة، فهذا من العقوق المحرَّم، كما لا يخفى على الإسلاميين، وإنما تكون الموضوعية مع الوالدين ببيان الحقيقة لهما، وسَوْق الرأي المُخالف لرأيهما في تلطّف وأدب وإيناس واحترام، وإشعارهما أن محبتهما الغالية ومنزلتهما الرفيعة في نفوس أبنائهما شيء،

وقول الحق والعدل والإنصاف ــ وإن جاء مخالفاً لرأيهما ــ شيء آخر، ولا تنقص هذه المخالفة أبداً من محبتهما ومكانتهما في نفوس أبنائهما المحبّين البَرَرَة.

التعصب للبلد وأهله:

للبلد الذي نشأ فيه الإنسان أو المدينة التي وُلِد فيها مكانة خاصة في نفسه، وشعوره بهذه المكانة الخاصة شعور طبعي سويّ، ما بقي معتدلاً غير زائد عن حدّه. أما إن زاد عن حدّه، وظهر في تصرفات الإنسان وتعامله وأحكامه، وأصبح السوري يهتف بسوريّة والسوريين، والمصري يهتف بمصر والمصريين، والأردني يهتف بالأردن والأردنيين، والخليجيّ يهتف بالخليج والخليجيين... أو إذا نما الشعور الإقليمي بين أهل مدينة وأخرى: فهذا دمشقي، وهذ حلبي، وهذا حموي، وهذا حمصي، أو هذا قاهريّ وهذا اسكندراني، أو هذا حجازي وهذا نجدي... إلخ، وانعكس هذا الشعور على موازين الإنسان في نظرته إلى أهل بلد أو مدينة، فهذا هو التعصب الممقوت بعينه الذي نراه أحياناً في صورة

بشعة في صفوف بعض الإسلاميين، ونرجو أن يبرأوا منه.

ويبدو هذا التعصب واضحاً عندما تجد اهتمامات الأخ ومساعداته تنصبّ كلها على أهل بلده، أو أهل مدينته، دون أي اهتمام بإخوانه من البلدان أو المدن الأخرى، أو تجد هذا الأخ منحازاً في مواقفه إلى أهل بلده أو مدينته، سواءٌ أكانوا محقّين أم غير محقّين.

لقد علّمنا رسول الله ﷺ أن هذه هي العصبية المنتنة، ونهانا عنها بقوله: «دَعوها فإنها مُنْتِنَة»[1]. وما فشت هذه العصبية المنتنة في قوم إلاَّ سرت فيهم البغضاء، وعمّت الكراهية، وتفككت أواصر الأخوّة، وتقطّعت وشائج الرحم.

ولا يخفى على الإسلاميين أنه لا تجتمع أخوّة الإسلام والعصبية الإقليمية في قلب مسلم نطق بالشهادتين واطمأن بهما قلبه، ووعى هَدْي دينه. ومن هنا كانت هذه العصبية من أشد السلبيات سوءاً

---

(١) رواه الشيخان.

وأخطرها في حياة الإسلاميين ودعوتهم، وكان التخلص منها من الأولويات التي يجب أن يخصّها الإسلاميون باستئصال شأفتها أينما وُجِدت، وحيثما ذرّ لها قرن.

التعصب للجنس:

وهذا اللون من ألوان التعصب يشبه اللون السابق ذكره، ولكنه تعصب للجنس، وليس للبلد أو المدينة. وهو تعصب مُنافٍ لتعاليم الإسلام وروحه السمحة؛ إذ من المعلوم لكل مَنْ له أدنى إلمام بتعاليم الإسلام أن أخوّة الإيمان تجمع بين العربي والعجمي، وتزيل ما بينهما من حدود وسدود، وتؤاخي بينهما، وتوحّدهما في الشعائر والمشاعر والأهداف والتطلعات، وحسبنا أن نقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1] لنرى متانة الأخوّة التي عقدها الإيمان بين القلوب المؤمنة، ونستمع إلى قول الرسول ﷺ، يستأصل فيه النزعات الجاهلية من أساسها: «إن الله أذهبَ عنكم

(١) الحجرات: ١٠.

عُبِّيَّة[١] الجاهليةِ وفخرَها بالآباء...»[٢]، ونقف عند قوله ﷺ: «سلمان منا آل البيت»[٣]، فنرى أن رسول الله ﷺ رفع سلمان الأعجمي إلى أعلى المراتب، وضمّه إلى أشرف البيوتات العربية على الإطلاق، تأكيداً منه صلوات الله عليه على إزالة الحواجز بين الأجناس التي نطقت بالشهادتين، لتأتلف هذه الأجناس جميعها على اختلاف ألسنتها وألوانها في أمة واحدة، سماها القرآن الكريم: خيرَ أمةٍ أُخرِجَتْ لِلنّاس.

فلا بدع أن كان سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي في ذؤابة المجتمع المسلم الذي بناه الإسلام في خير أمة أخرجت للناس.

أفبعد هذا كله يجوز لأحد من الإسلاميين أن يندّ لسانه بقالة ظالمة: هذا ليس بعربي، هذا هندي، أو هذا تركي أو هذا أندنوسي!!

---

(١) أي كِبْر.

(٢) حديث حسن رواه أبو داود والترمذي.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك.

وهل يرضى أحد من الإسلاميين بعد تمثّله هذا الهدي العالي من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أن يرتدّ إلى جاهلية جهلاء في التعصّب للقوم، كما صوره دريد بن الصمة بقوله[1]:

وهَلْ أَنا إلاّ مِنْ غَزِيَّةَ، إنْ غَوَتْ

غَوَيْتُ، وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ

إننا لنسمع عن التجمعات الإسلامية الواسعة في أوروبا وأمريكا وغيرهما أن هذه اللُّوثَة سرت إلى بعض صفوف الإسلاميين، وما كان لها أن تسري، والإسلاميون في وعي لهَدْي دينهم، وفقه لمبادىء دعوتهم، ووقوف عند سيرة قائدهم الأعلى محمد ﷺ.

هذه هي أبرز ألوان التعصب وأشكاله. لم يبرأ منها الإسلاميون، وإن كانت في صفوفهم أقل منها في صفوف غيرهم، ونحن إذ نسوقها على أنها سلبية يجب

---

(١) انظر الأصمعيات: ١٠٧، وحماسة أبي تمام: ٢٧٤، وجمهرة أشعار العرب بتحقيق المؤلف: ٥٩٠.

أن تختفي من حياة الإسلاميين، لا يخالجنا أدنى شك في حرصهم الشديد على التخلص منها، إن كان لها في حياة أحدهم وجود.

٦

فقدان شعور الذلّة على المؤمنين

من أجمل الصفات الأخلاقية التي وصف الله بها المؤمنين أنهم أذلّة على إخوانهم المؤمنين، أعزّة على أعدائهم الكافرين؛ فالمؤمنون الصادقون لا يرون غضاضة في أن يتواضعوا لإخوانهم، ويبالغوا في تواضعهم، حتى يصل هذا التواضع إلى درجة الذلّة التي امتدح الله عز وجل المؤمنين بأنها من صفاتهم المميّزة، وسجاياهم الغرّ، وخلائقهم الحسان، التي أهّلتهم أن يكونوا ممن يحبهم الله ويحبّونه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ. . .﴾[1].

وهم على النقيض من ذلك أعزّة مستعلون على

---

(١) المائدة: ٥٤.

الكفار؛ لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، كما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

ولا يخفى أثر هذه الصفة الأخلاقية المحبَّبة في تجميل شخصية صاحبها وتحبيبها إلى نفوس الناس؛ ذلك أن تواضع الأخ لإخوانه، ومبادرته إلى خدمتهم وإرضائهم بالحق، من الأمور التي تفتح مغاليق القلوب، وتلقي فيها المحبة والإعزاز والاحترام لهذا الأخ المتواضع لإخوانه، الحريص على وصل حبل الودّ، وتدعيم وشائج الأخوّة، وتوثيق عرى المحبة في الله.

وعلى النقيض من ذلك الأخ المتكبّر المستعلي على إخوانه، المتغطرس في كلامه ومعاملته إياهم. فإن هذه الصفة الأخلاقية الذميمة تنفّر إخوانه منه، وتبغّضه إلى نفوسهم، وتقطع حبل الود بينه وبينهم.

ومن هنا كان الإسلاميون أولى الناس بتدبّر هذه

---

(١) المنافقون: ٨.

الحقيقة، ومن أسرعهم إلى التحلّي بهذه الصفة المحبَّبة، صفة التواضع والتسامح والمراضاة، والحرص على دوام التخلّق بها، مهما كانت الظروف والأحوال، على أن تكون في سبيل الله، وفي نية الإبقاء على الود سائداً بين إخوة العقيدة والإيمان.

ولكن الواقع المشاهَد هو غياب هذه الصفة عند كثير من الإسلاميين، وغيابها سبّب لهم كثيراً من المشكلات، وفجّر عديداً من الفتن، وأرّث كثيراً من الأحقاد بين القلوب. وليست المصيبة في غياب شعور الذلّة على المؤمنين فحسب، بل في أن حلّ محلها شعور العزّة على المؤمنين.

وإني لأذكر أن أخاً جاءني ذات يوم، يقص عليّ قصّة اختلافه مع إخوانه في المدينة التي يقيم فيها، ويشكو ما لقي منهم من عنت وظلم وجفاء، ويعزو ذلك كله إلى رفضه الاعتذار لهم عما بدر منه نحوهم من مؤاخذات واعتداءات ومخالفات، تحملوها جميعاً، واكتفوا من هذا الأخ أن يتبرأ منها، ويعلن أنه إن كان قد أساء إلى أحد من إخوته، فهو يعتذر عن

هذه الإساءة. ولكن هذا الأخ صعب عليه جداً أن يعتذر، لأنه رأى أن في اعتذاره إذلالاً لنفسه واعترافاً بخطئه.

وأذكر أنني قلت له: ولِمَ لَمْ تبادر إلىٰ الاعتذار إلى إخوانك، إن كان قد بدر منك ما يوجب الاعتذار؟ أين التخلق بقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؟ أين التسامح والتغاضي والمراضاة التي ترضي الرب عز وجل؟ فكان جوابه: والله لم يخطر لي ذلك على بال، ولم يذكّرني به أحد، وكان امتناعي عن الاعتذار وتعقيدُ الأمور والوصولُ بالخلاف إلى الحد الذي وصل إليه.

وواضح أن نفسية هذا الأخ كانت مستعدة لتقبّل الاعتذار، لو أن هذا المعنى كان حيّاً في نفسه، أو دار مرة في خَلَدِه، أو ردَّدَه أحد على سمعه وذكّره به.

ولو أن كل أخ نزغ الشيطان بينه وبين إخوانه، وحدثت بينهم جفوة ونزاع، عاد إلى نفسه، وتذكّر قوله تعالى فيمن يحبهم ويحبونه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فسارع إلى إخوانه بوجه طلق باشّ، مبدياً

استعداده للاعتذار منهم إن كان قد بدر منه خدشٌ لكرامتهم، أو إساءةٌ لأحد منهم، لو فعل كل أخ هذا، وكاشف إخوانه بصفاء نيّته، وحسن ظنّه بهم، وبدّد اللَّبْس الذي يكتنف هذه النزاعات عادةً، لصفا جو الأخوّة بين الإسلاميين، ونَقِيَتْ النفوسُ والصدورُ من الغل والضغينة والبغضاء، ولازداد الصف الإسلامي متانة وتحابّاً وتلاحماً.

ومن هنا كان فقدان شعور الأخ بالذلّة على إخوانه المؤمنين من السلبيات الضارّة التي يجب أن تختفي من حياة الإسلاميين.

٧

الاهتمام بالأقوال دون الأفعال

لقد كان من تأديب القرآن لنا نحن معشر المسلمين أن نقول ونفعل ما نقول، لا أن نقول ما لا نفعل، وعدّ مناقضة القول للفعل، أو عدم مطابقة القول للفعل من المقت الكبير السّيّء الذي هدّد الله به عباده القوّالين غير الفعّالين، في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾[1].

ذلك أن الإسلام يقوم على القِيَم النبيلة والأخلاق الإنسانية العالية، ومن أولها احترام الكلمة، ومطابقة الأقوال للأفعال. ومن هنا جاء مقت الله لأولئك الذين

---

(١) الصف: ٢.

تجرّدوا من تلك القِيَم والأخلاق، فإذا هم يقولون ما لا يفعلون، أو يقولون كثيراً ولا يفعلون إلاَّ قليلاً.

ويضاف إلى مقت الله أولئك القوّالين الثرثارين غير الفعّالين، مقتُ الناس أيضاً وكراهيتُهم لهم؛ ذلك أن الناس يُحبون وينقادون إلى من يطابق فعلُه قولَه، ويَكرهون من يخالف فعلُه قوله، ولا يستمعون ولا يصغون إلاَّ إلى الفئة الأولى، وهم يعرضون عن الفئة الثانية وينفرون منها، مهما زوّقت الأقوال، ومهما حبّرت العبارات.

ومن هنا كانت فئة القوّالين غير الفعّالين ممقوتة عند الله والناس. وليس بمستغرب أن تكثر هذه الفئة في أوساط دَهْماء الناس وعامَّتِهم ورَعاعِهم وطَغامهم. أما أن يكون لها وجود، قلّ أو كثر، في أوساط الإسلاميين، فهو الأمر المستغرَب والمستهجَن والمؤسِف.

ذلك أن وجود ظاهرة الاهتمام بالأقوال دون الأفعال في أوساط الإسلاميين نقيصة وعيب وسلبية

لا تليق بالإسلاميين، ولا يجوز استمرارها أو السكوت عليها.

لقد ابتلي بعض الإسلاميين من الرجال والنساء بطغيان حب الظهور، فجعلهم ينمّقون الكَلِم، ويزخرفون القول، ويبالغون في تحسين الأداء، وإيراد النصوص، وإذا ما نظرت إلى سيرتهم بين الناس وإلى أفعالهم في واقع الحياة، وجدتها بعيدة عن أقوالهم، إن لم تكن مناقضة لها المناقضة كلها.

لكأن هذا النمط من الإسلاميين يحسب أن المسألة هي حفظ النصوص وتقريرها والإفاضة في شرح معانيها ومقاصدها، فإذا ما أجاد الداعية ذلك، فقد أدّى مهمته على أكمل وجه وأتم صورة، وغاب عن هؤلاء الإخوة أن الإسلام ليس دين كلام بقدر ما هو دين أفعال. ولذلك كثرت الآيات التي تتحدث عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كثرة بالغة في القرآن الكريم، مؤكدة قيمة الأعمال الصالحات بعد الإيمان، حتى إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يقفون عند عدد من الآيات البينات، فيتدبّرون معناها، ولا

يغادرونها إلى غيرها إلاَّ بعد أن يطبّقوا ما جاء فيها من هَدْي على أنفسهم وعلى مَنْ يعولون، فصاروا مصاحف تمشي على الأرض، في سيرتهم وأقوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم كلها.

ألا فليعلم كل إسلامي أحسّ بطغيان حب الظهور على نفسه، وبغلبة أقواله على أفعاله أنه وقع في المقت الذي هدّد الله به القوّالين غير الفعّالين، وفي كراهية الناس ونفورهم منه، وفي نزع الثقة به.

وكم تكون فاجعة الناس بالإسلاميين أليمة، موجعة حين تبدو النقائص وضعف التطبيق أو قلته في حياتهم الخاصة أو العامة، إذ يرونهم يدعون إلى التسامح ولا يسامحون، ويأمرون بالسخاء ولا يجودون، ويحضّون على التضحية ولا يضحون، وينوّهون بحسن المعاملة ولا يحسنون معاملة الناس، وينادون بضرورة العناية بتربية الأولاد وتأديبهم بأدب الإسلام، وينصرفون عن ذلك ولا يفعلون، إلى آخر ما هنالك من إيجابيات يدعو إليها الإسلاميون ولا تتحقق في حياتهم على الوجه المرضي المطابق لدعوتهم وأقوالهم.

ومن هنا وجب على الإسلاميين التنبّهُ إلى هذا المنزلق الخطير الذي يقع فيه كثير منهم دون أن يشعر، إذ يقولون كثيراً ويفعلون قليلاً، ومحاسبةُ أنفسهم بين حين وآخر، وأخذُها بالعزيمة في تطبيق ما يقولونه ويدعون إليه، كما يجب ألاَّ يغيب عنهم أن غياب التطبيق من حياة الإسلاميين أو نقصه من السلبيات التي يجب أن تختفي من حياتهم.

٨

الضّنّ بالنصيحة خشية الإحراج

لا يخفى على أي مسلم فقه شيئاً من هَدْي دينه أن الإسلام أمر بالنصيحة، وأعلى من شأنها، حتى جعلها الدين كلّه، كما جاء في قول الرسول ﷺ: «الدين النصيحة»، قال الصحابة الكرام: لمن؟ فقال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[١].

وكان الصحابة الكرام يبايعون الرسول ﷺ على الصلاة والزكاة والنصيحة لكل مسلم، يشهد لذلك قول جرير بن عبد الله رضي الله عنه:

«بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»[٢].

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) متفق عليه.

إن في اقتران النصيحة بالصلاة والزكاة في بيعة هذا الصحابي الجليل لرسول الله ﷺ لدليلاً على أهميتها في ميزان أعمال المسلم، وخطورتها في تقرير مصيره في آخرته، ومن هنا كانت خليقة أصيلة من خلائق المسلم الصادق التقي، الحريص على حسن عاقبته يوم الحساب.

فالمسلمون، ولا سيما الإسلاميين، لا يملكون إزاء هذا الهَدْي النبوي العالي إلاَّ أن يكونوا نُصحاء، لا يضنّون بنصيحتهم على مسلم.

ولكننا نجد بعض الإسلاميين يتحرّج من النصيحة لإخوانه، إذ يجدهم يتبرّمون من النصيحة، ويضيقون بها ذرعاً، بل يعدّونها أحياناً وصاية عليهم، أو تدخلاً في شؤونهم الخاصة، وفي كلتا الحالتين يرونها شيئاً غير مرغوب فيه.

إن مَن خالطت نفسَه بشاشةُ الإسلام لا ينكر النصيحة، ولا يتبرّم بها، بل يرحب بها، إذ هي من الأخلاق الأساسية المهمة التي حضّ الإسلام عليها وأمر بها. ومن هنا تبدو ظاهرة تبرم المنصوحين من

النصيحة، وضنّ الناصحين بها تحرجاً أن تفسّر على غير وجهها، تبدو هذه الظاهرة غريبة في جو الإسلاميين الذين يسيرون على هَدْي دينهم، ويتخلّقون بأخلاقه السمحة الغراء، بل تُعدّ من السلبيات التي يجب أن يتخلصوا منها.

إن واجب الإسلاميين أن يصدعوا دوماً بالنصيحة، ولو أغضبت المنصوحين، على أن يتلطّف الناصحون في سوق نصيحتهم، ويحسنوا التأتّي في تقديمها وتبيانها؛ لأنها الدين كله كما سبق بيانه آنفاً، والسكوتُ عن النصيحة تحرّجاً من إزعاج الآخرين أو إغضابهم تفريطٌ بشعيرة من شعائر هذا الدين، وتقصيرٌ في حق الأخوّة في الله.

وإن من حق الإخْوة الذين لم يجدوا نصحاً من إخوانهم أن يعتبوا عليهم؛ لأنهم حجبوا عنهم نصيحتهم في وقت الحاجة.

ولو أن النصائح أُسْدِيَتْ من الناصحين لمن هم بحاجة إليها، ومُحِّصَتْ ودُرِسَت وأُخِذ ببعضها على الأقل، لقلّت الأخطاء في حياة الأفراد والجماعات،

ولَتجنّبَ العاملون للإسلام كوارث ونكبات وشدائد ومحن لا حَصر لها. ومن هنا كان رافض النصيحة والمحجم عن إسدائها في الإثم سواء.

كم من نصيحة أسداها العقلاء لإخوانهم الذين ركبوا رؤوسهم في أوقات الشدّة والفتن، واندفعوا في أعمال جنونية حمقاء، لم تقم على دراسة ولا حساب دقيق، فضُرِبَ بتلك النصائح عرض الحائط، ورُمِيَ أصحابها بالجبن والخَوَر ونقص التفكير، وأنكروا عليهم نصائحهم، وعدّوها تجاوزاً منهم على مقام المنصوحين الرفيع! ولو أخذوا بها لجنّبوا أنفسهم وإخوانهم ودعوتهم الشرّ المستطير الذي وقعوا فيه وأوقعوا غيرهم.

إن النصيحة من سنن المرسلين، ومن أخلاق المؤمنين. والمنتصحون هم من الفائزين، أما غير المنتصحين فهم في بوار وخيبة وخسران، وقد قصّ علينا القرآن الكريم أخبار الأقوام الذين رفضوا النصيحة، وكرهوا الناصحين، فحاقت بهم الغواية، واستحقوا عذاب الله. قال الله تعالى إخباراً عن نوح

وقومه المعاندين الكارهين للنصيحة والناصحين:

﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ﴾[١].

وقال شعيب عليه السلام:

﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾[٢].

وقال صالح عليه السلام:

﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[٣].

وهذا كله يدعو الإسلاميين في كل زمان ومكان أن يكونوا نُصحاء، يتبادلون النصح فيما بينهم، فلا يضيق المنصوح ذرعاً بالنصيحة، ولا يضنّ الناصح بنصيحته ولا يتحرّج من إسدائها.

ويوم تغيب النصيحة من صفوف الإسلاميين لا يكونون في خير، والمؤاخذون هم رافضوها من المنصوحين والمُحْجِمون عن إسدائها من الناصحين.

---

(١) هود: ٣٤.

(٢) الأعراف: ٩٣.

(٣) الأعراف: ٧٩.

٩

عدم التثبّت من صحة الأخبار والأخذ بالظِنّة

شرع الإسلام قاعدة التثبّت من الأخبار التي يتداولها الناس لدرء الأخذ بالظِنّة، وقطع دابر الاتهام الظالم الذي لا يقوم على بيّنة ولا دليل، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾[1].

ذلك أن تناقل الأخبار من شخص إلى آخر قد يعرّضها إلى زيادة فيها أو نقص، هذا إذا ثبتت صحة الأخبار أصلاً؛ إذ كل خبر يحتمل الصدق والكذب، فهي إذاً قد تكون مكذوبة لا أصل لها، أو يكون لها

---

(١) الحجرات: ٦.

أصل، ولكن أصابتها زيادة أو نقصان، أخلّت بمقصدها وغيّرت من معناها، ومن هنا وجب التثبّت من صحة الأخبار أولاً، ودقة نقلها ثانياً.

وليت الناس قاطبة، والإسلاميين بخاصة، استناروا بمنهج المحدّثين الدقيق الحازم الصارم في تحرّي الحقيقة ودقة النقل، حتى إنهم صاروا مضرب المثل في تاريخ الأمم والشعوب في الحرص على نقل الأحاديث والأخبار، كما تلفّظ بها أصحابها، مع وصف دقيق للحالة التي كانوا متلبّسين فيها ساعة نطقهم بالكلام المنقول عنهم، كقولهم مثلاً: وقد روى فلان هذا الحديث وهو يتبسم، أو كان متكئاً فجلس، أو كان يومىء بيده، أو كان قائماً متجهاً إلى القبلة. . . إلى غير ذلك من الأحوال التي تشهد بدقة المحدّثين في الوصف والنقل، والحرص المتناهي على إيصال الحديث المنقول في إطار المشهد الواقعي الذي كان قائله فيه.

ومما لا ريب فيه أن التثبّت من الأخبار المنقولة من سمات العقلاء أصحاب الأحلام الراجحة

والشخصيات الرزينة القوية، وأن تصديق الأخبار المسموعة واعتمادها دونما مناقشة أو إعمال فكر دليل خفّة مصدِّقيها واضطراب فكرهم وضعف شخصيتهم.

والإسلاميون الذين أخذوا أنفسهم بقواعد هذا الدين وهَدْيه لا يفوتهم الأخذ بقاعدة التثبّت التي ألمعت إليها آنفاً، ولكن صفوفهم لا تخلو من أناس لم يأخذوا بهذه القاعدة، وهذا من السلبيات التي يجب أن تختفي من حياة كل من التزم بأحكام الإسلام وهَدْيه، وعدّ نفسه من الإسلاميين.

إنها ثُلْمة خطيرة في حياة بعض الإسلاميين أنهم لا يتثبَّتُون من صحة الأخبار التي يسمعونها أو يروونها، ويبنون عليها أحكاماً، وقد يتخذون منها مواقف، وهي في أصلها أخبار باطلة غير صحيحة، أو محرّفة تحريفاً يخرجها عن أصلها الذي قيلت فيه؛ فهذا يروي خبر سفر فلان إلى جهة ما، ويفسره على أنه كان لأغراض ضارة مشبوهة، وهو لم يسافر أصلاً. وهذا يروي خبر زيارة فلان لفلان بأنها من أجل الاتفاق على أمر غير مرغوب فيه، وهذه الزيارة لم تقع في الأصل، أو كانت

لأمر فيه خير. وهذا يروي حديثاً عن فلان في قضية حسّاسة من غير أن يتثبّت من صحة حديثه ونصّه. وهذا يأخذ خبراً طائراً عن فلان بأنه خالف فيه عن أمر الشريعة، فيصدقه دون أن يتثبّت من صحة هذا الخبر. وهذا يُنْمَى إليه أن كلاماً صدر من فلان، فيه مساس به وأذى، فيضطغن ويتألم ويحقد قبل أن يتثبّت مما نُمِيَ إليه.

وكم من مرة وقفت بنفسي على مثل هذه المرويات من غير تثبّت، ولمست آثارها الموجعة المدمّرة في نفوس المستهدفين بها. ولما مُحِّصَتْ الأخبار، وصُحِّحَتْ الروايات، ووُضِّحَتْ المواقف تبدّد التأثر، وصفت النفوس، وزال منها الكدر الذي علق بها إذ سمعَتْ ذلك اللغو الفارغ القائم على الظنّ والوهم والتخيّل.

إن من واجب الإسلاميين قاطبة التثبّت من صحة الأخبار التي يسمعون أو يروون، ووضعها على محك النقد والمحاكمة العاقلة قبل أن يبنوا عليها أحكاماً، أو يتخذوا منها مواقف، ولا يصح أبداً أن تغيب قاعدة

التثبّت من صحة الأخبار من حياتهم؛ لأن غيابها من السلبيات الجارحة القادحة في حسن إسلام المرء، والموقعة أحياناً بالظن الآثم الذي أمر الله عز وجل عباده المؤمنين باجتناب كثير منه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[1].

(١) الحجرات: ١٢.

١٠

الارتجال في
اتخاذ قرارات مصيرية وأسبابه

يحتاج اتخاذ القرار دوماً إلى الدراسة الحكيمة المستأنية المتقصّية الشاملة، ولا سيما إذا كان القرار يخص عديداً من الناس، ويمسّ حياتهم ومصالحهم وأمنهم. ففي مثل هذه الحالات ينبغي أن يكون نصيب العقل والحكمة والدراسة أكبر من نصيب العاطفة والاندفاع والحماسة، وكل قرار لا تتوافر فيه تلك الدراسة الحكيمة يكون مرتجلاً غير قائم على منطق ولا أساس سليم.

والارتجال في اتخاذ القرار يعظم خطره وتتضاعف آثاره حينما يكون القرار مصيرياً، يتعلق بحياة الناس والجماعات، وتكبر فظاعته ويشتد إيلامه حينما يكون صادراً عن الإسلاميين الذين أمرهم دينهم

بأن يعدّوا لكل أمر عدّته، ونهاهم عن المغامرة والتهاون في أمر دعوتهم، وحذّرهم من الزجّ بها في متاهات المصائب والنكبات.

إن من يستقرىء أحوال الإسلاميين في كثير من الأقطار الإسلامية يؤلمه أن يراهم وقعوا في كثير من الأحوال والمواطن بالارتجال في اتخاذ القرار، في قضايا مصيرية خطيرة كان لها آثارها المدمرة المفجعة التي لا تزول في سنين طويلة، كأن يتخذوا قراراً بمواجهة عدوّ متمكن، يفوقهم عدداً وعدّة وعتاداً بمئات المرات، وغاب عنهم، أن رسول الله ﷺ كان مهتماً جداً في معرفة عدد رجال أعدائه في معركة بدر، حرصاً منه على ألا يزجّ أصحابه في معركة غير متكافئة، وهو الرسول المؤيد بالوحي الواثق من نصر الله وتأييده، فسأل الدليل عن عدد القوم، فلما لم يظفر منه بجواب شافٍ عن عددهم، سأله كم يذبحون في اليوم، ليصل من وراء معرفة الذبائح إلى العدد الذي يكمن وراء الهضبة، وعلى المسلمين مواجهته بعددهم القليل وإيمانهم العظيم.

ومن الارتجال القاتل الذي حوّل نصر الإسلاميين إلى هزيمة في بعض الأقطار الإسلامية إقدامهم على منافسة خصومهم وتحدّيهم قبل أن يعدّوا القوة التي تحمي ظهورهم في الساحة الكبيرة التي تعجّ بالخصوم المتربّصين بهم الدوائر، المعدّين لهم مكر الليل والنهار، كما حدث للإسلاميين في الجزائر. . . فالحق لا بد له من قوة تحميه في هذا العالم المشحون بالحقد عليه والكيد له. ولا يكفي اعتداد أصحاب الحق بحقهم المشروع، وظهورهم مكشوفة للأعداء، بل لا بد من حماية للحق المنتصر، تحمل المناوئين له على الرضا به، وهم صاغرون.

وليست القوة التي أعنيها هنا اللجوء إلى العنف والتطرف وتهديد الأمن، كما يحدث في بعض الأقطار المنكوبة بهذا البلاء، وإنما هي التنظيم والضبط وتربية الأنصار الموالين الصادقين المخلصين، وإعدادهم لنصرة الحق لا لشيء آخر، بحيث يكون لهم وجود شرعي قوي في كل مكان في المجتمع، يؤهلهم للفوز بما يقدمون للناس من خير ولمجتمعهم من

خدمات، ويجعلهم جديرين بتبوّىء مراكز اتخاذ القرار.

وهناك صور أخرى للارتجال في اتخاذ القرار عند الإسلاميين، كما جرى في عدد من الأقطار الإسلامية، لا مجال لبسطها في هذه العجالة التي أقتصر فيها على القرارات المصيرية الخطيرة.

وللارتجال في اتخاذ القرار أسباب كثيرة عند الإسلاميين، أهمها في رأيي الأسباب الآتية:

١ ــ سيطرة المغامرين من أصحاب الأوزان الثقيلة والأصوات العالية في مراكز اتخاذ القرار:

قد يصل إلى مركز اتخاذ القرار عند الإسلاميين أناس تميّزوا بقوة الشخصية والجلد وقوة الحجة، ومنهم مَنْ يقدّم لدعوته خدمات كبيرة، وهذا من إيجابياته. ولكن من سلبياته أنه إذا اقتنع بفكرة راح يروّج لها بكل ما أوتي من قوة وفصاحة ولَسَن وجهارة صوت، ولو رأى معارضة لفكرته، حتى إنه ليعطّل الشورى في اتخاذ القرار بتأثيره الشخصي تارة،

وبتلويحه بالاعتزال والتنحّي عن العمل تارة أخرى، إن لم يؤخذ برأيه الذي يروّج له، هذا إذا لم يستخدم سلاح التهديد بالانشقاق وتصديع الصف، معتمداً في ذلك كله على وزنه الثقيل وصوته العالي، وما له من تأثير في صفوف معارضيه ودالّة عليهم.

٢ ــ الحسابات الناقصة:

وبدهي أن تكون حسابات هؤلاء المغامرين من أصحاب الوزن الثقيل والأصوات العالية ناقصة، لا تقوم على نظر سديد، ولا واقعية مقنعة، ولا استقصاء شامل، بل تقوم على اندفاع أهوج، ونظر قاصر، وخيال مهوّم، واستطلاع قليل، وغرور قاتل. ومن طبيعة هؤلاء المغرورين اندفاعُهم نحو المغامرة المرتجلة السريعة التي لا تقوم على حساب دقيق، ولا منطق سليم. ومن طبيعتهم أيضاً أنهم يضيقون ذرعاً بالناصحين والمحذّرين من المغامرة والارتجال، فتراهم يقدمون على أعمال أكبر من حجمهم وقدراتهم، ضاربين بنصح الناصحين وتحذير المحذّرين عرض الحائط، وسرعان ما تنكشف

لأبصارهم وبصائرهم حساباتهم الناقصة، ويتبدَّى لأعينهم مدى تعصبهم لرأيهم، وإصرارهم على إنفاذه والمضيّ فيه، وما جرّ ذلك كله عليهم وعلى غيرهم من كوارث ونكبات.

٣ ــ عدم الاستفادة من آراء أهل الخبرة والاختصاص وخبراتهم:

من الطبيعي ألا يكون لأهل الخبرة والاختصاص مكان إلى جانب أولئك المغامرين من أصحاب الأوزان الثقيلة والأصوات العالية؛ لأن أهل العلم والاختصاص يكشفون خطل آراء أولئك، ويظهرون زيف ادعاءاتهم وفساد تصوراتهم. ومن هنا لا لقاء بين الفريقين، ولا توافق ولا انسجام. ونحن نعلم أننا نعيش في عصر يقوم كل نشاط حركيّ فيه على العلم والاختصاص؛ فالتخطيط لمعركة عسكرية فاصلة لا يجوز أن يقوم به إلاَّ أصحاب الاختصاص من العسكريين، والتخطيط لمدّ شعبي لا يجوز أن يقوم به إلاَّ المختصّون من علماء الاجتماع والسياسة وعلم النفس، والتخطيط لتوجيه الناس وهدايتهم لا يقوم به إلاَّ علماء التربية

والتعليم والإرشاد، والفتوى في أمور الحلال والحرام لا يجوز أن تصدر إلاَّ عن علماء الشريعة الأثبات الأعلام، لا عن أنصاف العلماء وأشباههم والمتزيين بزيّهم، والتخطيط في أمور المال والاستثمار لا يقوم به إلاَّ المختصون في الاقتصاد أو الممارسون له من رجال الأعمال الناجحين الكبار. . وهكذا لا تُعطَى القوس إلاَّ باريها، ولا يسند الأمر إلاَّ إلى أهله. وهذا من هَدْي القرآن الكريم القائل: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾[1]، وأهل الذكر هنا هم أصحاب الاختصاص.

أما أن يتصدى لتلك الأمور من ليس هم لها بأهل، فهذا من السلبيات القاتلة المدمّرة التي ينبغي أن يتخلص منها الإسلاميون.

(١) الأنبياء: ٧.

١١

خاتمة وتعقيب

استعرضتُ في الصفحات السابقة أبرز السلبيات التي لم ينج كثير من الإسلاميين من الوقوع فيها؛ إذ رأينا منهم مَنْ ينصرف بكلِّيته إلى دعوة الناس إلى الخير، ويهمل أولاده، ومنهم من يتورَّط في الإخلاف بالوعد، ومنهم مَنْ يضيق ذرعاً بالنقد، فلا يطيق أن يسمع كلمة نقد أو نصيحة، ومنهم مَنْ يعاني تضخّماً في نظرته إلى نفسه وآرائه، ومنهم مَنْ ابتُلِي بداء التعصب للرأي أو للمذهب أو للتجمّع أو لعالم أو جماعة أو لأحد الوالدين أو لكليهما أو للبلد أو للجنس، ومنهم مَنْ أُصيب بآفة التكبر والاستعلاء على إخوانه وفقد شعور الذلَّة على المؤمنين، ومنهم مَنْ غلبت أقوالُه أفعالَه، ومنهم مَنْ أمسك عن النصيحة

خشية الإحراج، ومنهم مَنْ فقد ميزة التثبّت من صحة الأخبار وأَخَذَ بالظِنَّة، ومنهم من غلبت عاطفتُه على عقله فاتسمت أعمالُه بالارتجال. . .

على أنَّ هذه السلبيات إن وقع فيها كثير من الإسلاميين، فإن كثيرين منهم برآء منها أو من أكثرها والحمد لله، وما كان استعراضها على النحو الذي جاء في الصفحات السابقة إلاَّ لغرض محاصرتها والتخلص منها على قدر ما تسمح به الطبيعة البشرية، وما تسمو إليه النفوس، بحيث تختفي أو تكاد تختفي من حياة الإسلاميين الذين لهذه السلبيات في حياتهم وجود.

ذلك أن وجود هذه السلبيات أو غيرها في حياة بعض الإسلاميين مما يشين سمعتهم قاطبة، وصدق الله العظيم: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[1].

فالإساءة قد تقع من القلَّة فتسيء إلى سمعة الكثرة، وتعمهم جميعاً بشرها، ومن هنا وجب مكافحة

---

(١) الأنفال: ٢٥.

هـذه السلبيـات، واستئصـال جـذورهـا مـن صفـوف الإسلاميين الذين ابتُلوا بها، ولو كانوا قلَّة، حفاظاً على سمعة الكثرة وتنقية لسيرتهم كافةً بين الناس، ودرءاً للشرّ يحيق بهم جميعاً. وكلما قلَّت هذه السلبيات في حياة الإسلاميين زاد رصيدهم في نفوس الجماهير، وعلت منزلتهم عند ربهم، وكانوا خليقين بوعدِه لعباده المصطفَيْنَ الأخيار. باستخلافهم في الأرض والتمكين لهم فيها:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ﴾[1]

❑❑❑

(١) النور: ٥٥.

المحتوى

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
تمهيد	٧
١ ــ انصراف الداعية إلى إصلاح الناس وإهمال أولاده	٩ ــ ١٤
٢ ــ الإخلاف بالوعد	١٥ ــ ٢١
٣ ــ غياب النقد الذاتي	٢٣ ــ ٢٦
٤ ــ تضخّم «الأنا»	٢٧ ــ ٣٢
٥ ــ التعصّب	٣٣ ــ ٤٧
* التعصب للرأي	٣٤
* التعصب للمذهب أو التجمّع	٣٥
* التعصّب لعالم أو جماعة	٣٩
* التعصّب لأحد الوالدين أو لكليهما	٤١

الموضوع	الصفحة
* التعصّب للبلد وأهله	٤٣
* التعصّب للجنس	٤٥
٦ ــ فقدان شعور الذّلّة على المؤمنين	٤٩ ــ ٥٣
٧ ــ الاهتمام بالأقوال دون الأفعال	٥٥ ــ ٥٩
٨ ــ الضّنّ بالنصيحة خشية الإحراج	٦١ ــ ٦٥
٩ ــ عدم التثبّت من صحة الأخبار والأخذ بالظِّنَّة	٦٧ ــ ٧١
١٠ــ الارتجال في اتخاذ قرارات مصيرية وأسبابه	٧٣ ــ ٧٩
١ ــ سيطرة المغامرين من أصحاب الأوزان الثقيلة والأصوات العالية في مراكز اتخاذ القرارات	٧٦
٢ ــ الحسابات الناقصة	٧٦
٣ ــ عدم الاستفادة من آراء أهل الخبرة والاختصاص وخبراتهم	٧٧
١١ــ خاتمة وتعقيب	٨١ ــ ٨٣

• • •